المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دائرة الشؤون الثقافية والنشر ـ
الجمهورية العراقية
المجلد الثاني عشر ـ العدد الثالث ـ ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م

٣

WWW.ATTAWEEL.COM

أسماء المدن مكبرة

مجمع الأمثال

دراسة في منهجه وطائفة من امثاله

بقلم
سمير كاظم خليل
مدرس النقد الادبي الحديث في كلية التربية
جامعة البصرة

تعريف المثل واهميته :

قد تختلف الاراء وتتشعب في حد المثل او تعريفه ، وذلك لان الامثال اسلوب ادبي ذو خصائص متعددة ؛ وهي ذات اعداد هائلة تستند معظمها الى قاعدة شعبية عريضة ، كما ان تعدد اساليبها وصياغتها يزيد الطين بلة ومن الصعوبة على الباحث حصر هذا العدد الهائل المتباين في محتواه واسلوبه ضمن تعريف جامع مانع ؛ فهي تابى التحديد الجامد ، ولهذا لا يعدم الباحث ان يجد اكثر من تعريف وضعه اللغويون والادباء كل حسب ثقافته واطلاعه ؛ والامثال كما هو معروف اقوال محكية سائرة يقصد منها تشبيه احوال الذين حكيت فيهم باحوال الذين قيلت فيهم .

ولابد لنا ان نقف على الاصل الاشتقاقي لكلمة (مثل) قبل التعرض لاهم التعاريف التي قيلت فيه ، يقول ابن منظور : يقال مثل ومثل وشبه وشبه بمعنى واحد ، والمثل والمثيل : كالمثل والجمع امثال وهما يتماثلان ؛ والمثل : الشيء الذي يضرب لشيء مثلا فيجعله مثله ، قال الجوهري : ومثل الشيء ايضا صفته ، ويقال : تمثل فلان ضرب مثلا: وتمثل بالشيء ضربه مثلا : والمثل : ما جعل مثالا اي مقدارا لغيره يحذي عليه(١) ويرى ابو الحسين احمد بن فارس ان المثل يدل على مناظرة الشيء للشيء ، وهذا مثل هذا اي نظيره ؛ والمثل والمثال في معنى واحد . وربما قالوا مثيل كشبيه والمثل المضروب ماخوذ من هذا ، لانه يذكر مورى به عن مثله في المعنى(٢) فالاصل السامي العام لهذه الكلمة في العربية : مثل وفي العبرية (Māšāl) وفي الارامية (Matlā) وفي الحبشية (Mesel) وفي الاكادية (Mešāl) ويتضمن حسب اشتقاقها معنى المماثلة ؛ والمثل في اصل كلامهم بمعنى المثل والنظير(٣) ويرى البعض ان الكلمة من العبرية ففيها كلمة (مثل) تدل على هذا المعنى او اوسع منه . فهم يطلقونها على الحكمة السائرة والحكاية القصيرة ذات المغزى وعلى الاساطير ،(٤) ويرى رودلف زلهايم ان المثل قد وجد لدى العرب قبل ان يعرف بهذا الاسم بزمن طويل ؛ وللحاجة الى التجريد ـ تلك الحاجة التي توجد لدى الشعوب البدائية . سمى قدامى الساميين (المثل) باسمه تبعا لسماته الجوهرية اصلا وهي سمات المقارنة التصويرية ؛ ولا يفهم من اشتقاق كلمة (المثل) شيء اكثر من (التمثيل) ومعناه تشبيه شيء بشيء(٥) وبهذا الحديث المنتخب نكون قد اوضحنا المعنى الاشتقاقي لكلمة (مثل) التي تتردد كثيرا في كتب اللغة والادب .

---

(١) لسان العرب : مادة مثل .
(٢) معجم مقاييس اللغة : مادة مثل .
(٣) الامثال العربية القديمة : ٢١ .
(٤) فجر الاسلام : ٦٠ .
(٥) الامثال العربية القديمة : ٢٢ .

WWW.ATTAWEEL.COM

ولو حاولنا ان نستقصي كل تعريفات المثل لوجدناها كثيرة يصعب حصرها ومن اجل ذلك حاولت ان استشهد ببعضها على سبيل التمثيل لا الحصر ، ومن الذين اهتموا بالامثال (ابو هلال العسكري) الذي يؤكد اهمية المثل وصياغته قائلا: لما عرفت الامثال تتصرف في اكثر وجوه الكلام وتتدخل في جل اساليب القول اخرجوها في اوقاتها من الالفاظ ليخف استعمالها ويسهل تداولها فهي : اجل الكلام وانبله واشرفه وافضله لقلة الفاظها وكثرة معانيها ويسير مؤونتها على المتكلم مع كثير عنايتها وجسيم عائديتها ومن عجائبها انها مع اعجازها تعمل عمل الاطناب(٦) ويرى ابن عبدربه ان الامثال هي وشي الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعاني ، والتي تخيرتها العرب وقدمتها العجم ونطق بها (في) كل زمان وعلى كل لسان فهي ابقى من الشعر واشرف من الخطابة لم يسر شيء سيرها ولا عم عمومتها حتى قيل : اسير من مثل(٧) اما ابن الاثير فقد وجد ان الامثال اشبه بالرموز والاشارات التي يلوح بها على المعاني تلويحا ولاجل ذلك صارت اوجز الكلام ، وقد قيل في حد المثل: انه القول الوحيد المرسل ليعمل عليه وحيث هي بهذه المثابة فلا ينبغي الاخلال بمعرفتها(٨) ويتصدى له ابن ابي الحديد مقوما وناقدا لهذا التعريف حيث يقول : قال المصنف حد المثل (كذا) وهو باطل بقوله تعالى (اقيموا الصلاة) فانه قول وجيز ارسل ليعمل عليه وليس بمثل وايضا فان اراد بقوله ليعمل عليه اي ليعمل بموجب ما فيه من الاقتضاء والطلب فهذا باطل باكثر الامثال نحو قولهم هو افعل من كذا ، وان اراد بقوله ليعمل عليه ان يستعمل فيه الموضوع اللائق فكل بيت شعر من اشعار الجاهلية والمحدثين قول وجيز مرسل يستعمل في موضع يليق به وذلك يقتضي ان يكون الشعر كله امثال والصحيح ان يقال : المثل يطلق على نوعين احدهما ما قصد به المبالغة بلفظة افعل :(٩) » ونلاحظ ان الميداني يتفق مع المبرد في تعريفه للمثل بقوله : « المثل ماخوذ من المثال وهو قول سائر يشبه به حال الثاني بالاول والاصل فيه التشبيه(١٠) » ولقد اهتم الادباء المحدثون بالامثال ودراستها ومحاولة وضع تعريف لها ، ومن اولئك الدكتور شوقي ضيف حيث يقول : « الامثال عبارات تضرب في حوادث مشبهة للحوادث الاصلية التي جاء بها(١١) ويرى الدكتور عبدالمجيد عابدين ان المثل هو صحة العبارة التي تتصف بالشيوع والايجاز وجدة المعنى وصحته .. او هو العبارة الموجزة الادبية التي تدل على عقل واع وتأمل بعيد وصنعة ظاهرة في تنميق العبارة وتنسيقها(١٢) » ؛ ويعتقد عمر كحالة ان المثل قول سائر يمتاز بشهرته وايجازه ورقة معناه واصابة الغرض المنشود منه وصدق تمثيله للحياة العامة ولافكار الشعب على وجه الخصوص(١٣) ويلخص احمد الاسكندري معنى المثل بقوله : « ان المثل قول محكي سائر يقصد منه تشبيه حال الذي حكي فيه كحال الذي مثل لاجله(١٤) » ومن خلال هذه التعاريف التي قيلت حول الامثال نستطيع ان نستشف مدى اهتمام الادباء بظاهرة الامثال قديما وحديثا بوصفها نموذجا ادبيا له خصائصه ، ونرى انهم يلتقون في كونها قول موجز يراد به التشبيه ويحمل بين جوانحه روح الحكمة والتجربة الانسانية .

ولا بد لنا بعد هذا الاستعراض الموجز ان نسأل عن اهمية المثل بوصفه عنصرا من عناصر الادب المصنف ضمن فن النثر : اذن ما اهمية المثل : وما هي الدوافع لجمعه والاهتمام به ؟ نلاحظ ان الامثال تصور حياة الامة العربية بشتى جوانبها فهي صوت الامة وتقاليدها وعاداتها وعقليتها وحضارتها لانها في اعتقادي مرآة لما يحدث في رحم هذه الامة من تفاعلات اجتماعية وذهنية ، وتشير الى تأثر الحضارة العربية وتلاقحها بالحضارات الاخرى او بالعكس ؛ والامثال ظاهرة اجتماعية ادبية في الوقت نفسه ، تظهر عند اكثر الامم حتى تلك التي لم تعرف الكتابة فيها بشكل واسع ؛ وهي تجد المعاني عند الاستشهاد بها في طوايا الكلام . ولا يغيب عن الذهن ان الله تعالى قد ضرب الامثال في كتابة العزيز وهذا دليل على اهميتها وقيمتها .

ولا يعدم الباحث ان يجد الكثير من الادباء والباحثين يؤكدون اهمية المثل ومن هؤلاء جرجي زيدان الذي يعدها « من اداب العرب العامة لانها

(٦) جمهرة الامثال : ٣ .
(٧) العقد الفريد : ٣\٦٢ .
(٨) المثل السائر : ٦٢ .
(٩) الفلك الدائر : ٥٣ .
(١٠) مجمع الامثال : ٩ ينظر الكامل للمبرد : ١٨١ .
(١١) الفن ومذاهبه : ٢١ .
(١٢) الامثال في النثر العربي القديم : ٩ .
(١٣) الادب العربي في الجاهلية والاسلام : ١٧٢ .
(١٤) الوسيط في الادب العربي وتاريخه : ١٢ .

تجري على الـــنتهم مجرى الشعر وهي عظـات بالغة من ثمار الاختبار الطويل والعقل الراجح ،(١٥) فمن امثال الامة نـــتطيع ان نتفهم المستوى الذي وصلت اليه من حيث الرقي ونستطيع ان نعرف كثيرا من اخلاقها وعاداتها » فالامثال اذا « معين لا ينضب لمن يريد دراســة المجتمــع اواللغة او العادات الشعبية عند امة من الامم(١٦) » وبهــذا نكتفي بالحديث عن اهمية الامثال حيث يمكـن للقارىء ان يلمس ذلك من خلال دراستنا لمجموعة من الامثال العربية القديمة في الصـفحات القادمة .

حياة المؤلف :

تتفق اكثر المصادر والمراجع في المعلومات التي تناولت حياة هذا العالم الجليل ، ونراها تتحدث عنه باقتضاب مما يجعل من العسير علينا معرفة جزئيات حياته لنتفهم شخصيته من خلال ظروف حياته . وعلى كل حال فان المعلومات التي حصلت عليها تفي بالغرض ، لان البحث الذي نحن بصدده هو كتابه (مجمع الامثـال) ، وفي ظني ان الكتابة عن حياة المؤلف بكل تفصيلاتها امر يخرج بنا الى الى متاهات نحن في غنى عنها، لذلك سأتناول حياته بايجاز مفيد ثم الج خضم البحث في كتابه الشهير .

المؤلف هو ابو الفضل احمد بن محمد بن ابراهيم الميداني النيسابوري . كان اديبا فاضلا عارفا باللغة اختص بصحبة ابي الحسن الواحدي صاحب التفسير ثم قرأ على غيره ؛ واتقن فن العربية خصوصا اللغة . والامثال المنسوب اليه لم يعمل مثله في بابه ، وكتاب السامي في الاسامي وهو جيد في بابه وقد سمع الحديث ورواه(١٧) ولقد كانت له يد باسطة في انواع الادب وصنف التصانيف الجليلة مثـل (الهادي للشادي)(١٨) ، ويقـال ان الزمخشري الخوارزمي لما نظـر في الكتاب المذكور انكر عليه تسميته بهذا الاسم وقال له : الشادي(١٩) ما اخذ طرفا من العلم وهذا الكتاب لا يليق الا بمن كان منتهيا لامبتدئا وله كتب اخرى منها : (نزهة الطرف في علم الصرف) وكتاب (شرح المفضليات) وكتاب (منية الرافي في مسائل الكافي)(٢٠) ولقب المؤلف بالميداني نسبة الى «محلة من محال نيسابور كان يسكنها »(٢١)؛ وهي ميدان زياد بن عبدالرحمن في نيسـابور(٢٢) ، وقـد اشـتهر الميـداني بادبه وسعة علمه ؛ وعرف في البلدان بتصانيفه الحسان المشهورة، وقرأ الاصول واحكمها ثم اخذ بالتصنيف فاحسن كل الاحسـان فيما جمعه وصنفه وادبى على من تقدم بالترتيب والتحقيق واستدرك على بعض من زل من قبله من المصنفين واصـلح مواضـع الغلط وكتب عن الامام ابي الحسن علي بن فضال المجاشعي النحوي القادم على نيسـابور(٢٣) وبتمـم هذه الترجمة ما اثر عن الحسن البيهقي في كتابه وشاح الدمية قال عنه : الامـام استاذنا صـدر الافاضـل ابو الفضـل بن احمد الميداني صـدر الادباء وقدوة الفضلاء وقد صاحب الفضل ايـام فقد زاده وفني عتاده وذهبت عدته وبطلت اهميته فقوم سـناء العلوم بعد ما غيرتها الايـام بصروفهـا ووضع انامل الافاضل على خطوائها وحروفها ولم يخلق الله فاضلا في عهده الا وهو في مائدة ادابـه ضيف ، وله بين بابه وداره شتاء وصيف وما على من عام لجج البحر الخضم واستنزف الدر ظلـم وكان هذا الامام ياكل من كسب يده(٢٤) ، ويذكـر ان ابنه سعيدا كان ايضا فاضلا دينا وعالما جليـلا وله كتاب (الاسماء في الاسماء) .

ومن اطرف ما ذكر عن المؤلف قصته مـع الزمخشري ـ التي تدل على ذكائه ونباهته ـ وقد وردت تلك القصة في معظم المراجع التي تحدثت عنه ، وهي في اعتقادي نوع من المبالغة غير المحببة، وملخص القصة ان الميداني لما صنف كتابه مجمع الامثال « وقف عليه الزمخشري فحسده فاخـذ القلم وزاد (نونا) فصار : النميداني ، ومعنـاه بالفارسية الذي لا يعرف شيئا ، فلما وقف الميداني على ذلك اخذ بعض تصانيف الزمخشري وابـدل الميم نونا فصار (الزنخشري) ومعناه (بائع زوجته في الفارسية)(٢٥) ؛ ويبدو ان معنى كلمة زنخشري لـم تكـن دقيقة حيث نجد ان طاش كبرى زاده يعترض على ماذكر بقوله « قلـت المعنى المذكور اعني بائع زوجته ليس بحصل بتبديل الميم نونـا

(١٥) تاريخ اداب اللغة العربية : ٥٢/١ .
(١٦) مقدمة كتاب الامثال للسدوسي : ٥ .
(١٧) وفيات الاعيان : ١٢٠/١ .
(١٨) انباه الرواة : ١٢٤/١ .
(١٩) نزهـة الالباء : ٣٩٠ .
(٢٠) انباه الرواة : ١٢٤/١ .
(٢١) معجم الادبـاء : ٤٥/٥ .
(٢٢) وفيات الاعيان : ١٢٠/١ .
(٢٣) انباه الرواة : ١٤١/١ .
(٢٤) السامي بالاسامي : ج .
(٢٥) انباه الرواة : ١٢٢/١ ، معجم الادباء : ٤٧/٥ ، اللآلئ والمفلوكون : ٩٩ ، بغية الوعاة : ٣٥٦/١ .

فقط بل يجب مع ذلك تقديم انشين على الخناء ويقال (زنش خرى) واما بدون هذا التقديم فمعناه امر قبيح شنيع وهو تغوط على ذقنه»(٢٦)

ولما وقع الزمخشري على ذلك كتب الى الميداني واعتذر اليه من ذلك ، فكتب اليه اذا رجعت رجعنا وقبلنا عذرك ، وهذه فكاهة لاتليق بالمشايخ(٢٧)

وذكر محمد ابو المعاني بن الحسن الخوارى في معرض حديثه عن الميداني وعمله قوله « وسمعت غير مرة بعض اصحابه يقولون لو كان للذكاء والشهامة والفضل صورة لكان الميداني تلك الصورة» وكان ممن قرا عليه وتخرج به الامام ابو جعفر احمد بن علي المقرى البيهقي وابنه سعيد وكان اماما بعده »(٢٨) ومن خلال ترجمة حياته ظهر ان الميداني لم يكن لغويا فقط بل اديبا وشاعرا ايضا ، وقال عبدالغافر بن اسماعيل ومن اشعاره :

تنفس صبح الشيب في ليل عارضي
فقلت عساه يكتفي بعذارى
فلما فشا عاتبته فاجابني
الاهل يرى صبح بغير نهار

وله ايضا :

شفة لما ها زاد في آلامي
في رشف ريقتها شفاء سقامي
قد نسمنا جنع الدجى والثمنا
صوت كقطك ارؤس الاقلام

هذا على وجه التقريب معظم ماذكر عن المؤلف في المصادر والمراجع التي وقعت بين يدي؛ وهي اخبار قليلة بالقياس لمكانه هذا العالم الفذ . ولو تاملنا ابياته الاخيرة لوجدنا ان تشبيهه نابع من بيئة علم وادب فهو يصور صوت « النمش » بـ « قط الاقلام » وهذا التشبيه بالرغم من عدم شاعريته يدل على تاثره بادوات الكتابة وحبه لها اذ لم نسمع مثل هذا التشبيه الغريب الطريف من قبل الشعراء الاخرين لان مثل هذا التشبيه لايمكن ان يبرز في ذهن شاعر بعيد عن عالم الكتابة وادواتها .

وتكاد تتفق اكثر المصادر والمراجع على تاريخ وفاته فقد توفاه الله في رمضان سنة ثمان عشرة وخمسمائة ليلة القدر ودفن بمقبرة الميدان بعد ان ترك لنا اعظم التصانيف والتي منها كتابه القيم « مجمع الامثال » موضوع البحث .

(٢٦) مفتاح السعادة : ١/١٢٤ .
(٢٧) نزهة الالبـاء : ٢٩٠ .
(٢٨) معجم الادباء :- ٥/٤٧ - ٤٨ - .

منهجـــه :

لقد عني العرب بجمع الامثال لانها من جملة ما احتاجوا اليه في تحقيق الفاظ اللغة ولانها من جملة الاساليب النثرية التي صاغها العرب ، ومع ملتقى القرن الخامس بالسادس الهجري جمعت الامثال العربية القديمة في كتابين مشهورين هما « مجمع الامثال » للميداني و (المستقصي في امثال العرب) للزمخشري وقد اصبح هذان الكتابان مرجعين كبيرين لهذا النوع من الادب وبقيا كذلك حتى يومنا هذا ، فكان المتاخرون من جماع الامثال يقومون باختصارها او تنقيحها ولكنهم لم يستطيعوا ان يزيدوا عليها(٢٩) .

وقبل ان نتحدث عن اهمية هذا الكتاب - مجمع الامثال - لابد من الاشارة الى اختلاف اسمه بين مصدر واخر ولكنها تدور جميعها حول الامثال ويبدو ان قدرا معينا من التغيير قد دخل على اسم الكتاب بسبب النسخ كما اعتقد ؛ فنجده في (انباه الرواة) لجمال الدين القفطي باسم (جامع الامثال) ؛ ونجده في (بغية الوعاة) و (الفلاكة والمفلوكون) و (وفيات الاعيان) باسم (الامثال) ؛ اما في (كشف الظنون) فنراه باسم (مجمع الامثال) وهو ما اشتهر به ؛ ولكن (جرجي زيدان) في (تاريخ اداب اللغة العربية) قد جمع بين الاسمين دون الاشارة الى ما ورد لدى القفطي باسم (جامع الامثال) .

ولبيان اهمية هذا الكتاب يحكي بان الزمخشري بعد ما انف المستقصي في الامثال وقع بين يديه مجمع الامثال فاطال النظر فيه ؛ واعجبه جدا ، ويقال انه ندم على تاليفه المستقصي لكونه دون مجمع الامثال في حسن التاليف والوضع وبساطة العبارة وكثرة الفوائد وغزارة المادة الادبية فيه ، وقد فضل اللاحقون من العلماء والادباء بعد ذلك كما يبدو كتاب الميداني على كتاب قرينه الزمخشري ، فقد طبع مجمع الامثال اكثر من مرة ، طبع حروف وطبع حجر ؛ حيث « طبع مرارا في مصر وفي بيروت سنة ١٣١٢ هـ وطبعة بيروت

(٢٩) انظر تفصيل ذلك في كتاب : الامثال العربية القديمة :- ٢٠٩ - ٢١٠ - .

اتقنها لانها عبارة عن نظم الامثال في ارجوزة عليها شروح لشيخ ابراهيم الاحدب المتوفى في بيروت ١٣٠٨هـ وقد سماه (فوائد الالآل في مجمع الامثال) صدر في مجلدين ضخمين يليهما فهارس ابجدية في مئة صفحة ؛ مما جعل فوائده مضاعفة وله مختصرات غير شائعة(٢٠) ، في حين ان كتاب الزمخشري لم يصل الى يد الناس الا في طبعة حيدر آباد .

ولنترك المؤلف يحدثنا عن منهجه في تاليف كتابه بعدها نقوم نحن باستقراء هذا المنهج وتحليله ثم توضيح ما لم يذكره ؛ ويبدو انه الف هذا الكتاب بناء على رغبة السيد العالم ضياء الدولة صفي الملوك ابي علي محمد بن ارسلان ، يقول المؤلف : اشار بجمع كتاب في الامثال مبرز على ما له من الامثال مشتمل على غثها وسمينها محتو على جاهليها واسلاميها ، فعدت الى وطني ركض المنزع ثمرة الغالي مشمرا عن ساق جدي في امتثال امره العالي فطالعت من كتب الائمة الاعلام ما امتد في تقصيه نفس الايام مثل كتاب ابي عبيدة وابي عبيد والاصمعي وابي زيد وابي عمرو وابي فيد ، ونظرت فيما جمعه المفضل بن محمد والمفضل بن سلمة حتى لقد تصفحت اكثر من خمسين كتابا ونخلت ما فيها فصلا فصلا وبابا بابا مفتشا من ضوالها زوايا البقاع، مذبذبا عنها ابنها بصارمي القطاع علما مني اني امت به الدينار في كشف ناقد ، واجلو منه البدر لطرف غير راقد يزيده بالنظر فيه رونقا وبهاء ويكبه بالاقبال عليه سنا وسناء .

ونقلت ما في كتاب حمزة بن الحسن الى هذا الكتاب ما ذكره من خرزات الرقي وخرافات الاعراب والامثال المزدوجة لاندماجها في تضاعيف الابواب وجعلت الكتاب على نظام حروف المعجم في اوائلها ليسهل طريق الطلب في تناولها وذكرت في كل مثل من اللغة والاعراب ما يفتح الغلق ومن القصص والاسباب مايوضح الغرض ويسبغ الشرق مما جمعه عبيد بن شرية وعطاء بن مصعب والشرقي القطامي وغيرهم ، فاذا قلت المفضل مطلقا فهو ابن سلمة واذا ذكرت الاخر ذكرت اسم ابيه، وافتح كل باب بما في كتاب ابي عبيد وغيره ثم اعقبه بما على افعل من ذلك الباب ثم امثال المولدين حتى آتي على الابواب الثمانية والعشرين على هذا النسق ولا اعد حرفي التعريف ولا الف الوصل والقطع والامر والاستفهام ولا الف المخبر عن نفسه ولا ما ليس في اصل الكلمة حاجزا الا ان يكون قبل هذه الحروف مايلازم المثل .

وجعلت الباب التاسع والعشرين في اسماء ايام العرب دون الوقائع فان فيها كتبا جمة البدائع .. وجعلت الباب الثلاثين في نبذ من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وكلام خلفائه الراشدين رضى الله تعالى عنهم اجمعين مما ينخرط في سلك المواعظ والحكم والاداب ؛ وسميت الكتاب (مجمع الامثال) لاحتوائه على عظيم ما ورد منها وهو ستة الاف مثل ونيف والله اعلم بما بقي منها فان انفاس الناس لا ياتي عليها الحصر ولا تنفد حتى ينفد العصر(٢١) .

ان ماذكره المؤلف انفا يبدو وكانه منهج واضح وسليم ؛ ولكني وجدت بعض الامور التي يمكننا ان نؤاخذ المؤلف عليها او نلفت النظر اليها بسبب عدم الاهتمام بها مع اهميتها وهي :

١ ــ لم ينظم اسماء الذين اخذ عنهم في رفد كتابه بحسب التسلسل التاريخي لوفاتهم فهو يذكر (ابو عبيدة) و (ابو عبيد) قبل (عبيد بن شرية) ؛ في حين يعد هذا هو الراوية القريب من الاول ان لم يكن الاول وهو عبيد بن شرية الجرهمي ت ٧٠ هـ الف كتابا في الامثال ويقول ابن النديم انه راى الكتاب(٢٢) وهو نحو خمسين ورقة وعبيد هذا كان من جملة الرواة النسابين وكان من الاولى ان يرتبهم كالاتي :

أ ــ عبيد بن شرية الجرهمي	(٧٠ هـ).
ب ــ ابو عمرو بن العلاء	(١٤٥ هـ) .
ج ــ المفضل الضبي	(١٧٠ هـ) .
د ــ ابو فيد السدوسي	(١٩٨ هـ) .
هـ ــ ابو عبيدة	(٢١١ هـ) .
و ــ ابو زيد الانصاري	(٢١٥ هـ) .
ز ــ الاصمعي	(٢١٦ هـ) .
ح ــ ابو عبيد القاسم بن سلام	(٢٢٣ هـ) .

ويبدو ان غرام المؤلف بالسجع جعله يخرج على المنهج العلمي في ترتيب اسماء الاعلام الذين استقى منهم .

---

(٢٠) تاريخ اداب اللغة العربية : ٤٥/٢ .

(٢١) فصل المقال في شرح كتاب الامثال :

(٢٢) بنظر الامثال في النثر العربي القديم : ٢٢ .

٢ ـ يذكر الميداني في مقدمته ايضا اسمي عالمين اخرين هما :

الشرقي بن القطامي وعطاء بن مصعب ، وان هذين العالمين من رواة الاخبار التاريخية كما اعتقد ولم يذكر الميداني اي كتاب لواحد منهما لا في هذا الموضع ولا في اي موضع اخر من الكتاب ، واغلب الظن انه لم يذكرهم في المقدمة الا ليشير الى ان بعض حكايات الامثال التي ذكرها جماع الامثال المتأخرون ترجع في روايتها الى كتاب قدماء معروفين في رواية الامثال غير ان كتبهم لم يبق منها شيء في زمن المؤلف ، يقول الدكتور احسان عباس في حديثه عن الاخير « اما عطاء بن مصعب فلم نجد احدا تصدى لذكره غير الميداني اذا لم يكن في الاسم تصحيف او تحريف ، فانه يبدو انه كان من تلك الطبقة المبكرة من الرواة التي اهتمت برواية ما تتصل به بعض الامثال من اخبار او اساطير » .

٢ ـ لم يكن الميداني الرائد في جمع الامثال كما نعرف ، وهو قد اشار الى ذلك في مقدمة كتابه حيث قال بانه تصفح اكثر من خمسين كتابا ولكنه للاسف لم يذكر اسماء او بعض اسماء تلك الكتب مع اعتقادي بانه قد بذل جهدا مشكورا في جمع الامثال بعد ان كانت مبعثرة بين كتب الامثال الاخرى والاخبار والنوادر والحكايات الشعبية وادخلها ضمن تصنيف جميل سهل التناول حتى اصبح كتابه المصدر المهم الاول في معرفة الامثال حتى القرن السادس باعتباره عاش جزءا منه ولم يشر المؤلف ايضا الى اسلوب استقائه من تلك المصادر وهل اضاف شيئا ماخوذا من شفاه الناس ام انه اكتفى بهذه المصادر التي نخلها بابا بابا ؟ .

ولو حاولنا ان نختبر المؤلف في دقة ذكر العدد الذي اورده في المقدمة والبالغ ستة الاف ونيف لوجدنا ان عدد الامثال التي عالجها الميداني مرتبة حسب الابواب الثمانية والعشرين التي تساوي عدد الحروف الابجدية كالاتي :

(٣٦٦٨) مثلا و (١٠٦٥) مثلا على وزن افعل اضف الى ذلك (٩٠٥) من الامثال المولدة التي ذكرها المؤلف عقب الامثال التي على وزن (افعل من) في كل باب ، وبذلك يصبح مجموع الامثال الموجودة في الابواب كلها هو : ٥٦٣٨ مثلا واذا احتسبنا بعد ذلك (٢١٧) يوما من ايام العرب ذكرها الميداني في الباب التاسع والعشرين ، ثم نحب (٢٢٨) مثلا تنسب الى الرسول (ص) وخلفائه (رض) فاننا نصل الى اكثر من ستة الاف مثل وهو ما عبر عنه الميداني بـ (ستة الاف ونيف) وهو بذلك قد التزم بمنهج علمي رياضي واضح ولا اعرف كيف فات الدكتور عبدالمجيد عابدين العدد الدقيق لامثال المولدين في مجمع الامثال حيث قال بانه ما يقرب من الفين مستندا في ذلك ـ كما يبدو ـ الى احصاء الباحث (غويطاين) في حين ان عددها المضبوط كما قلنا هو (٩٠٥) امثال فقط .

ويرى جرجي زيدان ان مجمع الامثال يضم بين جنبيه « نخبة ما احتوته كتب المتقدمين ، جمعه مؤلفه من نحو خمسين كتابا في الامثال ورتبه على حروف المعجم بعد ان اضاف اليه امثال المولدين وهو اجمع كتاب في الامثال العربية وفيه شروح لطيفة وقد طبع مرارا بمصر والشام ، اما كتب الامثال الاصلية التي اخذ عنها الميداني والزمخشري فالباقي منها قليل اهمها كتاب الامثال لابي عبيد بن سلام وامثال العرب للضبي وجمهرة امثال العرب للعسكري .

ولقد خلف لنا العرب الكثير من الامثال .. منها الامثال القديمة وهي ما خلفها العرب في العصر الجاهلي ، ومنها ماظهر في العصر الاسلامي ثم العصور التي تلته وهي ما اطلق عليها الميداني (امثال المولدين) ولقد كان البدوي يطلق المثل على سجيته وعلى فطرته وسليقته فينتشر بعد فترة من الزمن في انحاء الجزيرة العربية ، وذلك لما فيه من بساطة وحس صادق وتعبير عن روح العصر وجاء في المقدمة وضعها الاستاذ عبدالفتاح محمد الحلو لكتاب الثعالبي قوله وكثيرا ما يحزبك امر ويهبط عليك سرور او تدهش لحادث فتجد نفسك لا شعوريا تنطق بالمثل وكانما تذكرت طبيعتك الانسانية(٢٢) .

ويرى الدكتور رمضان عبدالتواب في مقدمته لكتاب ابي فيد البدوي ان جمع الامثال انما مر بثلاث مراحل وهي كالاتي :

١ ـ مرحلة الاخباريين والقصاص وكان غرضها الحكاية .

٢ ـ مرحلة اللغويين وكان غرضها جمع الامثال وتصنيفها في موسوعات ، وظهر منها في هذه المرحلة :

---

(٢٢) التمثيل والمحاضرة : ٢٣ .

أ ـ جمهرة الامثال لابي هلال العسكري ت (٣٩٥ هـ) .

ب ـ مجمع الامثال للميداني ت (٥١٨هـ) .

جـ ـالمستقصي لامثال العرب للزمخشري ت (٥٣٨ هـ)

د ـ مجامع الامثال للبيهقي ت (٥٦٥ هـ)(٣٤) .

اما كتاب جمهرة الامثال للعسكري فقد رتبه على حروف المعجم كما يذكر مقدمته ، واورد فيه ما يقرب من الف وستين مثلا ، كلها من الامثال القديمة ولم يتعرض لامثال المولدين كما فعل الميداني ، ولا يهمنا في هذه المرحلة غير كتاب مجمع الامثال للميداني موضوع البحث ، ولهذا الكتاب اهمية جليلة وذلك لاحتوائه على عدد كبير جدا من الامثال ؛ وقد تعترض الباحث جملة صعوبات عند دراسته لهذه الامثال ، ولعل ابرزها عدم تحديد الزمن الذي قيل فيه المثل ، ومن الذي قاله او رواه ، وهذه الصعوبة لا نجدها في كتاب الميداني حسب بل في معظم كتب الامثال ، فمن الصعب ان نميز هذه الامثال جاهليها من اسلاميها الا في القليل النادر ، يقول الاستاذ احمد امين في هذا الصدد : وقد عاق عن الاستفادة من الامثال العربية اختلاط الامثال الجاهلية بامثال الاسلام اختلاطا كبيرا حتى ليصعب التفريق بينهما ، وهذه اول خطوة يجب التحقق منها قبل الاستدلال بالامثال على الحياة العقلية(٣٥) ونستطيع ان نخع بعض الدلائل العامة التي يمكننا بواسطتها ان نحدد مصدر المثل او زمنه واهم هذه الدلائل هي :

١ ـ وجود بعض الامثال التي قيلت في حوادث تاريخية مهمة ذكرها يدل على زمن المثل من خلال الحادثة او الوقعة التي قيل من اجلها المثل .

٢ ـ توجد بعض المفاهيم الجاهلية سواء اكانت اجتماعية ام فكرية او غيرها تنعكس في طائفة من الامثال ، نستطيع من خلالها الاستدلال على تحديد زمنها مثل : انصر اخاك ظالما او مظلوما الذي استشهد به الرسول (ص) فيما بعد كما يقال .

٣ ـ تتميز بعض الامثال بذكر اسم القائل او الرواية او القصة التي قيل من اجلها المثل وذلك يجعلنا نتأكد من ضبط المثل وصحته وتحديد زمنه ان لم تكن القصة او الشخصية المذكورة خرافية او اسطورية كما سنرى فيما بعد .

٤ ـ وجود ما يعبر عن البيئة او الطبيعة التي قيل المثل فيها من حيوان او نبات او اطعمة او مظاهر حضارية مادية اودينية او غير ذلك .

ولكن ستبقى المشكلة قائمة في اعتقادي لان هذه الدلالات ليست مقياسا مضبوطا لحصر جميع الامثال التي قيلت ومن جهة اخرى فان الامثال قد رتبت في معظم كتب الامثال ترتيبا هجائيا اي بحسب ترتيب المعاجم وهذه الظاهرة عامة في تلك الكتب باستثناء المفضل الضبي ، فلم ترتب الامثال بحسب العصور مثلا ، ولا بحسب تطور المجتمع العربي انذاك ، وهذا ما افقدها كثيرا من قيمتها العلمية في تصوير حياة الامة ؛ يقول احمد امين في هذا المجال : « لم نر فيما نعلم احدا رتبها كل حسب اصولها الاجتماعية كان يجمع الامثال التي تتعلق بالغنى والفقر وبالعمر واطواره وبالزواج والاسرة وبالعمل والتجارة والحظ وما اليه وبالاصدقاء والجيران وبالمراة واخلاقها وبالصحة والمرض الى نحو ذلك »(٣٦) .

طريقة تناوله للامثال .

ان طبيعة جمع الامثال وشرحها تستدعي جهدا وثقافة عامة من المؤلف والباحث الذي يحاول دراستها لانها كثيرة وتلتصق بعادات وتصورات وثقافات وعلاقات الناس بشتى طبقاتهم المتباينة . على هذا الاساس يكون من الصعب ابداء الراي فيها دون تمحيص وادراك للجو العام الذي قيل المثل في احضانه ؛ يقول ابن الاثير « وسبيل المتعدى لهذا الفن ان يسلك ما سلكته وليعلم ان الحاجة اليها شديدة ، ان العرب لم تضع الامثال الا لاسباب اوجبتها ، وحوادث اقتضتها فصار المثل المضروب لامر من الامور عندهم كالعلامة يعرف بها الشيء وليس في كلامهم اوجز منها ولا اشد اختصارا »(٣٧) ولو حاولنا أن نقارن بين من نقلوا المثل عن الاخرين لوجدنا ان الاختلاف واضح بين الناقل الاول

(٣٤) ينظر كتاب الامثال العربية القديمة : ٥ ـ ٩ .
(٣٥) فجر الاسلام : ٦١ .
(٣٦) فجر الاسلام : ٦٢ .
(٣٧) المثل السائر : ١/٢٠ .

والثاقل الثاني لاسباب تتعلق بفهم الجامع للمثل فهو يغير في قصته ولو تتمات بالرغم من ان هذا ليس من شانه ولكننا نؤكد ان التغيير الحاصل في قصص الامثال يعود الى الرواة والجامعين ودليلي على ذلك ما قاله ابن الاثير بخصوص فهم الامثال وكيف يروي قصة المثل ، ثم نلاحظ ان بعض الاختلاف قد وقع عند رواية الميداني للمثل نفسه. يقول ابن الاثير : ان ما اذكره لك لتتكون من معرفته على يقين فاقول قد جاء عن العرب من جملة امثالهم « ان يبغ عليك قومك لا يبغي عليك القمر » وهو مثل يضرب للامر الظاهر المشهور الاصل فيه كما قال المفضل بن محمد : انه بلغنا ان بني ثعلبة بن سعد بن ضبة في الجاهلية تراهنوا على الشمس والقمر ليلة اربع عشرة من الشهر فقالت طائفة تطلع الشمس والقمر يرى وقالت طائفة يغيب القمر قبل ان تطلع الشمس فتراضوا برجل جعلوه حكما (رواية مجمع الامثال : فتراضوا برجل جعلوه بينهم) فقال واحد منهم (رواية مجمع الامثال : فقال رجل منهم) ان قومي يبغون علي : فقال الحكم (رواية الميداني : فقال العدل) ان يبغ عليك قومك لا يبغي عليك القمر فذهب مثلا .

ومن المعلوم ان قول القائل « ان يبغ عليك قومك لا يبغي عليك القمر » اذا اخذ على حقيقته من غير نظر الى القرائن المنوطة به والاسباب التي قيلت من اجلها لا يعطي المعنى ما قد اعطاه المثل . وذلك ان المثل له مقدمات واسباب عرفت .. ولولا تلك المقدمات المعلومة والاسباب المدونة لما فهم من قول القائل « ان يبغ عليك قومك لا يبغي عليك القمر » ما ذكرناه من المعنى المقصود بل ما كان يفهم من هذا القول معنى مفيد لان البغي هو الظلم والقمر ليس من شانه ان يظلم احدا فكان يصير معنى المثل: ان كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر وهذا الكلام مختل المعنى ليس بمستقيم(٢٨) . ومن خلال القصص الذي اوردناه لابن الاثير نلاحظ ان الاختلاف واضح في رواية قصة المثل من راو الى اخر ؛ هذا بمعنى تغير الفاظ القصة زيادة او نقصا او مرادفا مع الحفاظ على المعنى بالقياس الى اصل وضعها ويؤكد ابن الاثير في كلامه الذي ذكرناه على فهم المثل قبل الشروع بدراسته لان المثل المجرد ربما لا يعطينا الصورة الواضحة الدقيقة او المغزى الذي وضع من اجله ؛ وهذا المنهج لم يعد سليما ومنطقيا ودقيقا .

ولو طبقنا هذا المنهج على ما ورد في كتاب الميداني لوجدنا ما يلي :

١ ــ ان المؤلف يقوم بعض الاحيان بتقويم شرح الامثال فنراه يقول في مثل هذا المثل : (ان الموصين بنو سهوان) هذا مثل تخبط في تفسيره كثير من الناس والصواب ما اثبته بعد ان احكي ما قالوا ، قال بعضهم : انما يحتاج الى الوصية من يسهو ويغفل فاما انت فغير محتاج اليها لانك لا تسهو ، وقال بعضهم : ويريد بقوله بنو سهوان جميع الناس لان كلهم يسهو والاصوب في معناه ان يقال : ان الذين يوصون بالشيء يستولي عليهم السهو حتى كانه موكل بهم ويدل على صحة هذا المعنى ما انشده ابن الاعرابي من قول الراجز :

انشد من خواره عليان
مضبورة الكاهن كالبنيان
القت طلاب ملتقى الحومان
اكثر ما طافت به بومان
ثم ينهها عن عدها فيدان
ولا الموصون من الرعيان
ان الموصين بنو سهوان

يضرب ان يسهو عن طلب شيء امر به والسهوان السهو يجوز ان يكون صفة اي بنو رجل سهوان وهو ادم عليه السلام حين عهد اليه فسها ونسي ؛ قال رجل سهوان وساه اي ان الذين يوصون لابدع ان يسهوا لانهم بنو ادم عليه السلام(٢٩) ومن خلال ما ذكره الميداني في شرح المثل السابق يمكننا ان نستشف ان شروح الامثال ليست مستندة الى قصة مضبوطة ومروية بدقة حيث يمكن الاعتماد عليها والاقل لي هل يجوز لمثل هذا المثل ان يروي دون قصة بالرغم من انه غير واضح ؟ وهل من المعقول الا نكتشفه ظروف خاصة قيل من اجلها ؟ اين القصة اذن ؟ ان كل هذه الاسئلة لا جواب عليها فالمفروض من المؤلف ان يذكر لنا القصة على الاقل ولا نقول بذكر اسم قائله في اكثر تقدير لنتاكد نحن من ذلك .

٢ ــ ان الميداني في مجمل كتابه لا يذكر قائل المثل او راويته الا في القليل النادر ؛ وهذا امر قد يكون في اعتقادي عائدا الى غياب قائل المثل لان المثل كما هو معروف خلاصة خبرة مجتمع ما ؛

(٢٨) المثل السائر : ٦٢ ــ ٦٣ ينظر مجمع الامثال : ١/٣٠ .

(٢٩) مجمع الامثال : ١/١١ ــ ١٢ .

وهو اشبه بالحكاية الشعبية لكن الذي أشير اليه هو ان بعض الامثال التي اصلها ابيات من الشعر لشاعر قد يكون معروفا لدى ادباء ذلك الزمن ولكنه يتركها دون توثيق ؛ فلو اخذنا هذا المثل : (ان البغاث بارضنا يستنسر)(٤٠) لوجدنا انه في الاصل شطر من بيت شعر ؛ المفروض ان يذكر اسم الشاعر ولو كان معروفا بين ابناء عصره او المناسبة التي قيل من اجلها هل مدح ؟ ام هجاء لقومه ؟ لان الشطر يستوعب المعنيين ولكن الميداني لم يذكر سوى بضعه اسطر شرح فيها المثل كالاتي « البغاث ضرب من الطير وفيه ثلاث لغات انفتح والضم والكسر والجمع وبغاث الطير ، قالوا طير دون الرخمة واستنسر صار كالنسر في القوة عند الصيد بعد ان كان من ضعاف الطير ؛ يضرب للضعيف يصير قويا وللذليل يعز بعد الذل ولهذا من حقنا أن نعترض على المؤلف الذي ادعى في مقدمته انه نخل كتب الامثال واخذ ما رآه جيدا وعليه لابد من التأكد من القائل والقصة على اقل تقدير .

٣ ـ ولكننا في بعض الاحيان نرى المؤلف يورد المثل مشفوعا بالقصة والقائل عند شرحه كما هو موجود في المثل القائل : (اتتك بحائن رجلاه) كان المفضل يخبر بقائل هذا المثل فيقول انه للحرث بن جبلة العماني قاله للحرث بن العيف العبدي وكان ابن العيف قد هجاه فلما غزا الحرث بن جبلة المنذر بن ماء السماء كان ابن العيف معه فاتي به الى الحرث بن جبلة فعندها قال (اتتك بحائن رجلاه) يعني سيره مع المنذر اليه ثم امر الحرث سيافه الدلامص فضربه ضربة دقت منكبه ثم برا منها وبه خبل ؛ قيل اول من قال عبيد بن الابرص حين عرض للنعمان بن المنذر في يوم بؤسه وكان قصده لمدحه ولم يعرف انه يوم بؤسه فلما انتهى اليه قال له النعمان هلا كان هذا غيرك قال البلايا على الحوايا فذهبت كلمتاه(٤١) وبهذا يكون المؤلف قد استوفى شروط البحث العلمي بالرغم من اختلاف الرواية حيث ذكر انه استند في ذلك على المفضل .

٤ ـ لقد كنا نامل من هذا الاديب واللغوي الجليل ان يقوم بدراسة الامثال دراسة لغوية وتاريخية خاصة وانه يملك ثقافة ادبية ولغوية واسعة وكذلك معرفة اللغة الفارسية ولم نجد في كتابه الانتقا من هذا النوع مثل (اول ما طلع ضب ذنبه) قال ابو الهيثم يقال ذلك للرجل يصنع الخير ولم يكن صنعه هذا الرجل ؛ منهم من يرفع اول ويرفع ذنبه على معنى اول شيء اطلعه ذنبه ومنهم ينصب اول وينصب ذنبه على ان يجعل صفة يريد ظرفا على معنى في اول ما طلع ضب ذنبه(٤٢) وفصل مثل ذلك في المثال القائل : (استأصل الله عرقاته قال ابو عمرو يقال استأصل الله عرقات فلان وهي اصله وقال المنذري هذه كلمة تكلمت بها العرب على وجوه ؛ قالوا استأصل الله عرّقاته وعرْقاته وعِرِقاته وعَرِقاته قلت لم يزيدا على ماحكيت وارى انها ماخوذة من العرقة وهي الطمرة تنسج فتدار حول الفسطاط فتكون كالاسل له وجمع على عرقات وكذلك اصل الحائط يقال له العرق فأما سائر الوجوه فلا ارى لها ذكرا في كتب اللغة الا ما قاله الليث فانه قال العرقاة من الشجر ارومة الاوسط ومنه تشعب العروق وهو على تقدير فعلاة وقال ابن فارس والازهري العرب تقول في الدعاء على الانسان استأصل الله عرقاته ينصبون التاء لانهم يجعلونها واحدة مؤنثة مثل سعلاة وقال اخرون بل هي تاء جماعة المؤنث لكنهم خففوه بالفتح قال الازهري من كسر التاء في موضع النصب وجعلها جمع عرقه فقد اخطا(٤٣) . وان هذا الذي ذكرته يدل على اهمية الالتفات الى الشروحات اللغوية والادبية للامثال ولكن المؤلف كما يبدو قد اهتم بالجمع والتصنيف والاحاطة والبحث عن الشواذ في مصادر الامثال دون الاهتمام بدراسة الامثال ودراسة نشأتها وعوامل تطويرها وصروبها وهو لم يتجاوز في ذلك جماع الشعر والحديث ولكنا لانكر هذا الجهد العظيم الذي بذله المؤلف في الترتيب والتصنيف .

٥ ـ لقد استخدم المؤلف افضل طريقة في ترتيب الامثال وهي الترتيب على حروف المعجم حتى يسهل الوصول اليها ؛ وقد ذكر ذلك في مقدمة كتابه ولم يجعل (الف التعريف) من ضمن الكلمة الاولى في المثل بل ترتب الامثال وكانها غير موجودة اصلا وكذلك فعل مع الف الوصل والقطع والاستفهام ويعد هذا الترتيب من اسهل وافضل الطرق في تصنيف الامثال حيث يمكن للباحث ان يهتدي اليها دون عناء وهناك طرق متعددة في تصنيف الامثال منها الترتيب التاريخي والموضوعي اي

(٤٠) المصدر السابق : ١ / ١٢ .
(٤١) المصدر السابق : ١ / ٢٥ .
(٤٢) المصدر السابق : ١ / ٦٥ ـ ٦٦ .
(٤٣) مجمع الامثال : ١ / ٦٦ .

حسب الموضوع .. الخ ولكن هناك امراً لابد ان نشير اليه لدى الميداني هو اهتمامه بالحرف الاول الاصلي دون الثاني والثالث كان يقدم كلمة و (عند) على (عبد) و (عارف) وهذا مما يؤدي الى الاضطراب والعناء في البحث عن بعض الامثال ولا اقول ان يؤثر في قيمة الكتاب وجلاله فالرجل قد بذل من الجهد ما يشكر عليه .

٦ ــ وتأتي هنا على امر مهم يذكره الميداني في توضيح الامثال الا وهو القصص الغريبة التي تتمتع بملامح اسطورية قديمة دون الاشارة الى ذلك تأمل تعقيبه على هذا المثل : (انما خدش الخدوش انوش) الخدش الاثر وانوش هو ابن ادم صلى الله عليهما وسلم اي انه اول من كتب واثر بالخط في المكتوب ويضرب فيما قدم عهده(٤٤) فهو هنا ينقل من مصدر تاريخي لم يشر اليه للاسف ؛ ثم من قال ان (انوش) هو أول من كتب على الحجر وهل كانت الكتابة معروفة انذاك ؛ ان هذا في ظني ضرب من الخيال البعيد المبني على الخرافة الشعبية وهو ابعد مايكون عن البحث الواقعي .

ان المثل القائل : (احدى حظيات لقمان) فيه قصة طويلة عن لقمان الجاهلي ومغامراته الغرامية وكذلك المثل القائل : (اعز من الزباء) وهي امراة من العماليق واصلها من الروم وكانت ملكة الحيرة تغزو الجيوش وهي التي غزت ماردا والابلق وهما حصنان كانا للسموال بن عاديا اليهودي وكان مارد مبنيا من حجارة سود والابلق من حجارة سود وبيض فاستصعبا عليها فقال تمرد مارد وعز الأبلق فذهب مثلا(٤٥) ان مثل هذه القصص وغيرها تدل دلالة واضحة على اصلها الخرافي وقد اختلفت اراء الادباء حول القصص التي وردت مع الامثال بشكل عام والتي تميزت بطابع المبالغة والخيال ومن اجل ان نتعرف على مدى صحة هذه القصص لابد من الاشارة الى ان مجموعة من الباحثين يرون ان هذه القصص انما اوجدها الشراح فيما بعد وانا اتفق معهم في ذلك ومن هؤلاء الدكتور شوقي ضيف بعد ان تكلم عن توزيع الامثال بحسب الحروف الهجائية حيث يقول « ثم بعد هذا التوزيع يفسرونها ويقصون احيانا حوادثها التي فيها معتمدين غالبا على الظن والتخمين(٤٦) ،

ويقول في موضع اخر « وموقفنا من هذه الاقاصيص والاساطير لايختلف عن موقفنا من القصص الجاهلي بعامة فنحن لا نتخذ منها صورا للنثر الجاهلي وان اختلجت بروحه وطبيعته وحبوته نتفس السبب الذي ذكرناه وهو تاخر تدوينها »(٤٧) ويوافقه في هذا الراي الدكتور عبدالمجيد عابدين حيث يقول : كان الناس ينطقون بكثير من الامثال بصورتها الموجزة يفهمونها جملة لاتفصيلا وتجرى على السنتهم سهلة طيعة سريعة ومع ذلك كان هناك فئة من الرواة يتعقبون اصول هذه الامثال ويرون ان ذلك من كمال صنعتهم ومن واجبات حرفتهم وفي هذا المجال كان الاجتهاد في تفسير الامثال يلعب دورا كبيرا في اقوال الرواة(٤٨) ويورد الدكتور عابدين ثلاث قصص ليؤكد بها مدى التحريف والاجتهاد في القصص وهي : قصة الزباء ؛ خرافة الحية والفأس وقصص لقمان الجاهلي حيث يشرح القصص شرحا مفصلا(٤٩) ويقول في اثناء تعقيبه على هذه القصص « وما يفسر لنا بعض الحالات التي ينشأ فيها المثل الموجز من القصة وذلك حيث تكون القصة هي الاصل والمثل الفرع ولكن الوضع ليس كذلك دائما في نشأة الامثال التي تتضمن في قصص فلا شك ان طائفة كبيرة من الامثال كانت هي الاصل ثم لفقت لها القصص بعد ذلك لشرحها وتفسيرها كثيرا من الامثال الموجزة التي يتمثل بها الناس في مناسباتهم المختلفة ؛ كانت تنتهي الى الاجيال المتاخرة مقطوعة عن اصولها وهذا امر لانزال نلاحظه في امثالنا الدارجة اليوم ينطق بها لساننا في المناسبات ونفهم مغزاها بالجملة(٥٠) فالقصص التي وردت في مجمع الامثال تندرج في معظمها تحت ماذكرناه من اقوال الباحثين لانها لم تخرج عن طبيعة ما اشرنا اليه من استخدام الاسطورة والخيال البعيد وهي كما يبدو جاءت متاخرة عن الخيال في الحكايات الشعبية والقصص الموروثة مثل الف ليلة وليلة وغيرها .

دراسة نقدية لطائفة من الامثال

لايعدم الباحث ان يجد في (مجمع الامثال) اختلاطا وتداخلا بين الامثال من حيث زمنها او تاريخ تاليفها وقد حاولت قدر الامكان ان اقسم الامثال الى عدة مجاميع حسب ازمانها او موافعها

---

(٤٤) مجمع الامثال : ١ / ٢١ .
(٤٥) المصدر السابق : ١ / ٥٠٤ .
(٤٦) الفن ومذاهبه في النثر : ٢١ .
(٤٧) العصر الجاهلي : ٤٠١ .
(٤٨) الامثال في النثر العربي القديم : ٣٧ .
(٤٩) المصدر السابق : ٣٨ ــ ٥١ .
(٥٠) مجمع الامثال : ٢ / ٩٠ .

الجغرافية وقد بدات اولا بدراسة الامثال العربية القديمة التي تمثل الحياة البدوية والحضرية بنوعيها من حيث تعبيرها عن بيئتها واسلوبها وبنائها الفني ، ثم الامثال الاسلامية وبعدها امثال المولدين لان المؤلف افرد لها مكانا خاصا وجعلها في خاتمة كل باب .

وسابدا اولا بجملة امثال تعبر عن الحياة العربية بجانبيهاالبدوي والحضري وبجوانبهاالمتعددة الاجتماعية .. الاقتصاديه .. الفكرية .. وغيرها فقد كانت هناك الحياة البدوية بكل قساوتها والتي كان يسودها الصراع الدائم المستمر من اجل البقاء : هذه الحياة التي كانت تقوم على السلب والنهب والقتل والغارات فقلما كان البدوي ينعم بحياة هادئة امنه ومن اجل هذا فقد نشبت الحروب والمناظرات والمفاخر التي كانت تعقد في اسواقهم ، كل هذه العوامل اثرت في البدوي من الناحية الفكرية والنفسية فجعلته في صراع دائم في سبيل تحقيق وسيلة العيش .

قالت العرب : (كمجير ام عامر) كان من حديثه ان قوما خرجوا الى الصيد في يوم حار فانهم لكذلك اذ عرضت لهم ام عامر وهي الضبع فطردوها وتبعتهم حتى الجاوها الى خباء اعرابي فاقتحمته فخرج اليهم الاعرابي وقال ما شانكم قالوا صيدنا وطريدتنا فقال كلا والذي نفسي بيده لاتصلون اليها مانبت قائم سيفي بيدي قال فرجعوا وتركوه وقام الى لقحة فحلبها وماء فقرب منها فاقبلت تلغ مرة في هذا ومرة في هذا حتى عاشت واستراجت فبينا الاعرابي نائم في جوف بيته اذ وثبت عليه فبقرت بطنه وشربت دمه وتركته . وقالت العرب : (كل الصيد في جوف الفرا) قال ابن السكيت الفرا الحمار الوحشي قالوا واصل المثل ان ثلاثة نفر خرجوا متصيدين فاصطاد احدهم ارنبا والاخر ظبيا والثالث حمارا فاستبشر صاحب الارنب وصاحب الظبي بما نالا وتطاولا عليه فقال الثالث كل الصيد في جوف الفرا اي هذا الذي رزقت وظفرت به يشتمل على ما عندكما وذلك انه ليس مما يصيده الناس اعظم من الحمار الوحشي وتالف النبي صلى الله عليه وسلم ابا سفيان بهذا القول حين استاذن على النبي (ص) فحجب قليلا ثم اذن له ... فقال النبي يا ابا سفيان انت كما قيل كل الصيد في جوف الفرا(٥١) وقد قالت العرب (في بيته يؤتى الحكم) هذا مما زعمت عن السن البهائم قالوا : ان الارنب التقطت ثمرة فاختلسها الثعلب فاكلها فانطلقا يختصمان الى الضب فقالت الارنب : يا ابا الحسل فقال : سمعا دعوت قالت اتيناك لنختصم اليك قال عادلا حكمتما قالت فاخرج الينا قال في بيته يؤتى الحكم قالت : اني وجدت ثمرة قال حلوة فكليها قالت : فاختلسها الثعلب ، قال : لنفسه بغى الخير قالت: فلطمته قال: بحقك اخذت قالت فلطمني قال : حر انتصر قالت : فاقض بيننا قال قد قضيت فذهبت اقواله كلها امثالا(٥٢) وقالت العرب : (بلغ السيل الزبى) هي جمع زبية وهي حفرة تحفر للاسد اذا ارادواصيده واصلها انالزبية لا يعلوها الماء فاذا بلغها السيل كان جارفا مجحفا يضرب لما تجاوز حده(٥٣) نلاحظ من خلال تاملنا للامثال التي سبق ذكرها انها تمثل جانبا مهما من جوانب حياة الانسان العربي في صحرائه المترامية الاطراف الا وهو (الصيد) ونرى البدوي يصف وصفا دقيقا ما يلاقيه من مخاطر في اثناء رحلته هذه وكذلك طرق الانتقام منها اذا هي اذته ، ثم نرى فراسة البدوي وحيله في صيد هذهالحيوانات . هناك ايضا سرد البدوي لقصص الحيوان ومحاكاة هذه القصص وتمثله بها، ولو انبعض هذه القصص تمتاز بطابع الاسطورة وعدم الاطمئنان كما اشرنا سابقا ولقد تمثل بها النبي (ص) كما راينا بقوله (كل الصيد في جوف الفرا) وهذا يثبت قدم هذا المثل وتداوله قبل الاسلام . وهناك جانب اخر من جوانب حياة البدوي في شخصيته وخلقه الا وهو الوفاء وهذا من اهم مميزات البدوي التي كان يفخر بها ويعتز وكان شديد الوفاء لصديقه وقومه واهله وجاره وقد وردت امثال كثيرة في الوفاء وغيره من الصفات الحسنة ، فقد قالت العرب : (نجز حر ما وعد) يقال ينجز وقال الازهري نجز الوعد وانجزته انا وكذلك نجزت به وانما قال حر ولم يقل الحر لانه حذر ان يسمي نفسه حرا فكان ذلك تمدحا قال المفضل : اول من قال ذلك الحرث بن عمرو آكل المرار الكندي لصخر بن نهشل بن دارم وذلك ان الحرث قال لصخر هل ادلك على غنيمة على ان لي خمسها فقال صخر نعم فدله على ناس من اليمن فاغار

---

(٥١) المصدر السابق : ٢ / ٨٢ .
(٥٢) المصدر السابق : ٢ / ١٨ .
(٥٣) المصدر السابق : ١ / ٩٦ .

عليهم بقوة فظفروا وغنموا فلما انصرفوا قال له الحرث : نجز حر ما وعد فارسلها مثلا »(٥٤) ومن الذين يضرب فيهم المثل بالوفاء في الجاهلية الشاعر السموأل فقد قالت العرب : (اوفى من السموال)(٥٥) وقصته معروفة فلم نذكرها هنا لطولها ولعدم تناسبها مع حجم البحث ، وقالت العرب : (اوفى من الحرث بن عباد) يقال انه كان اسر عدى بن ربيعه في يوم قضة ولم يعرفه فقال له دلني على عدى بن ربيعة فقال له ان انا دللتك على عدى اتؤمنني قال نعم وقال : فليضمن ذلك عليك عوف بن محلم فامره الحرث بن عباد فضمن له عوف ان يؤمنه الحرث فقال عدى انا عدي فخلاه وقال الحرث في ذلك :

لهف نفسي على عدي وقد اشـ
عب للموت واحتوته اليدان(٥٦)

وقالت العرب : (ابنما اوجه اتق سعدا) كان الاضبط بن قريع سيد قومه فرأى منهم جفوة فرحل عنهم الى اخرين فراهم يصنعون بساداتهم مثل ذلك فقال هذا القول ، ويروي في كل واد سعد بن زيد(٥٧) وقالت العرب : (اعدى من السليك) وفيه قصة طويلة (٥٨) وقالت العرب : (تركته تفنيه الجرادتان) يضرب لمن كان لاهيا في نعمة ودعة والجرادتان قينتا معاوية بن بكر احد العماليق وان عادا لما كذبوا هودا عليه السلام توالت عليهم ثلاث سنوات لم يروا فيها مطرا ..(٥٩) وفيه قصة طويلة وقالت العرب .. (ان غدا لناظره قريب) وفيه قصة طويلة تدل على الوفاء والتزام العربي بكلمته ووعده والقصة حدثت في زمن النعمان وفي يوم بؤسه(٦٠) وقالت العرب : (حمله على قرن اعفر) اي على مركب وعر (٦١) ان هذه المجموعة من الامثال وغيرها التي تعبر عن الجانب النفسي وهي في مجموعها انما تمثل جوانب مختلفة من حياة البدوي المتعددة في خلقه ومجتمعه وبين احضان الطبيعة التي كانت تقسو عليه في غالب الاحيان فلقد كانت هذه الامثال خير سجل لمفاخرهم واحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والادبية ، كان هناك تصوير دقيق لمواقف البطولة والشجاعة والحرب والاغارة وفي اصلاح ذات البين بين افراد القبيلة الواحدة والمجتمع بشكل عام كانت تصويرا لحياتهم التي كانت تعتمد على التنقل حيث مواطن الكلأ والماء والحياة والرعي وحياة الصيد ، فكانت خير مصور لهذا الجانب من حياة البدوى الا وهو الكرم والوفاء .

وقد كان في هذه الامثال وصف دقيق لاحوال القبيلة العربية وكان فيها تسجيل لبعض النوادر والطرائف التي كانت مادة لسمرهم في مجالسهم واسواقهم ، يقول الدكتور عبدالمجيد عابدين(٦٢) في هذا الشأن ، وقد وردت في هذه القصص اشارات تدل على ان المناذرة كانوا يجلبون الى مجالسهم افرادا من العرب مشهورين بالظرف والتفكيه فيسمعون منهم كثيرا من المضاحك والنوادر ومن هذه المضاحك ماذهب في العرب امثالا فكان ضبة بن عبدالله يقول الشعر ويضحك الملوك؛ يضحك النعمان فيعجبه وقد شغف العرب بالسمر كما شغفت سائر الامم فاذا اقبل الليل اجتمعوا للسمر وظلوا في نشوة الحديث حتى (تزقو الديكة) ايذانا بالصبح فينصرفوا على مضض لانها تؤذن بتفريق شملهم وصرفهم عن لذتهم الى عمل النهار الشاق ويضربون بها المثل في الثقالة فيقولون : (اثقل من حمل الزواقي) قال محمد بن قدامة سألت الفراء عنها فلم يعرفها فقال جليس له ان العرب كانت تسمر بالليل فاذا زقت الديكة استثقلتها لانها تؤذن بالصبح اذا زقت فاستحسن الفراء قوله(٦٣) وكان حرصهم كبيرا على السمر في الليالي المقمرة فاذا جاء الشتاء انحرموا من تلك اللذة ضد رغبتهم ومن امثالهم : (اضيع من قمر الشتاء)(٦٤)، ومن شأن العرب ان تبالغ في وصف الشيء حتى يذهب الخيال بهم الى اختراع الاكاذيب وهي كثيرة عنهم وهذا من دواعي شيوع النكتة بينهم وكانت هي الفكاهة المفضلة في امثالهم واسمارهم .

(٥٤) المصدر السابق : ٢ / ٢٩٥ .
(٥٥) ينظر مجمع الامثال : ٢ / ٢٢٦ .
(٥٦) المصدر السابق : ٢ / ٣٤٠ .
(٥٧) المصدر السابق : ١ / ٥٥ .
(٥٨) ينظر المصدر السابق : ١ / ٥٠٨ .
(٥٩) المصدر السابق : / ١٢٨ .
(٦٠) المصدر السابق : ١ / ٧٤ .
(٦١) المصدر السابق : ١ / ٢٢٢ .
(٦٢) الامثال في النثر العربي القديم : ٥٣ .
(٦٣) مجمع الامثال : ١ / ١٦٤ .
(٦٤) المصدر السابق : ١ / ٢٢٨ .

وكذلك الامثال على وزن افعل فيها المبالغة في التشبيه ؛ والفكاهة فيها في الاغلب الاعم ؛ بل ان المواقف والحوادث الفكاهية التي تقصها الامثال هي سرد سريع مركز ينتهي بالنكتة مثال ذلك قولهم : (اعيا من باقل) وهو رجل من ربيعة بلغ من عيه انه اشترى ظبياً باحد عشر درهما فمر بقوم فقالوا له بكم اشتريت الظبي فمد يديه ودلع لسانه يريد احد عشر فشرد الظبي وكان تحت ابطه(٦٥) يقول الدكتور عبدالمجيد عابدين في هذا الشأن : ولعل اكثر الامثال القديمة التي تقصد الفكاهة تميل الى الوصف الحسي والعملي فتصور مواقف او حوادث او تشير اليها اشارة خاطفة وهي في تصويرها حسية لاصقة بالارض لاتستهدف غرضا نقديا ولا مغزى اجتماعيا وقلما كانت المواقف التي تصور حماقات الناس وعيوبهم ـ في مفهومها الشعبي ـ عند العرب ذات نزعة نقدية او تأديبية واغلب الظن ان (المغزى او المضرب) قد الحق بالامثال او بكثير منها في عصور متأخرة عن نشأة الامثال نفسها(٦٦) ونقرأ المثل الاتي : (جاء كخاصي العير) يضرب لمن جاء مستحييا ويقال يضرب لمن جاء عريانا ما معه شيء ووجه الاستحياء يعلوه لان خاصي العير يطرق راسه عند الخصاء ..(٦٧) وهذا المثل كما ترى فيه صورة جميلة تتمثل شخصا فيه طبيعة الحياء او لعله صنع جرما شنيعاً انكره عليه الناس وانكره هو على نفسه فاصابه استحياء شديد فهو مشغول بما صنع ، يود ان يتوارى من الناس فمثله كمثل خاصي العير وهو يطرق راسه عند الخصاء يتامل كيفية ما صنع وهذا عمل قبيح عند سواد الناس ويستحي من صنعه علية القوم ونسمع قولهم الذي ذهب مثلا : (دب قملة) مثل يضرب للانسان اذا سمن وحسن حاله(٦٨) فاذا بهذه اللمحة الخفيفة تتكشف امام اعيننا عن مشهد رجل غني هبطت عليه النعمة بعد شدة وفاقة ؛ واذا به يزداد سمنا في الجسم فيترهل ويتهدل واذا بالخير الكثير يحدق به من كل جهة واذا ببيته يغص بالزائرين من الناس ممن يخدعهم بريق النقود والجاه الاجوف .

(٦٥) المصدر السابق : ١ / ٥٠٤ .
(٦٦) الامثال في النثر العربي القديم : ١١٩ .
(٦٧) مجمع الامثال : ١ / ١٧٢ .
(٦٨) المصدر السابق : ١ / ٢٧٨ .

ان كل صورة من الصور السابقة تحمل موقفا فيه عنصر التتابع الزمني يرتقي من خلال حركات الحوادث والمواقف وفي كل صورة منها لفظ يعين على هذا الارتقاء كالدبيب والمجيء وغيرها وهذه بمثابة خطوط زاهية توضح ملامح الصور وتثبت بها الروعة ؛ وكانت منسابة متتابعة جميلة ، ومن الامثال ما يصور حركات قصيرة خاطفة يدور فيها الزمن في نقطة معينة ويخطو خطوة واحدة ؛ فمن ذلك قولهم : (برح الخفاء) اي زال من قولهم ما برح ويضرب في الكريم يخدمه من دونه(٦٩) وقد يدخل من التتابع الزمني في مدلول الصورة نحو قولهم (لطمه لطم المنتقش) اذا لطمة لطما متتابعا(٧٠) يريد انه لطمه مرات كما يصنع البعير اذا شاكته شوكة لا يزال يضرب يده بالارض بهدف انتقاشها وفي لفظه (المنتقش) وحدها صورة موجية مليئة بالحركة والروعة تترقى خلالها حركات متتابعة .

من الواضح البين ان مادة الخيال في هذه الصور مستمدة من الحياة العربية من حيوان ونبات حوادث ومشاهد ووسائل العيش في بيئاتهم ، الا ان مادة الخيال هذه بمقاييس الاذواق المتحضرة ربما لا تروق في بعض الاحيان ذلك ان كثيرا من عناصر هذه المادة يفتقر الى صقل وتهذيب ؛ فمن الناحية الخلقية قد ترفض اذواقنا هذه العناصر لما فيها من افحاش وخشونة او بعد عن المالوف في حياتنا ، كقولهم : (جاء كخاصي العير) و (بال حمار فاستبال احمرة) ومع هذا فان الصور المجازية بحد ذاتها رائعة لاغبار عليها فنحن نفرق في حكمنا على هذه الصورة بين الجانب الاجتماعي والجانب الفني ان صح التعبير ؛ ولو اردنا ان نحدد بعض الخصائص الفنية لهذه الامثال نلاحظ ما يلي :

١ ـ الايجاز الشديد وهي ظاهرة تكاد تكون عامة في مجمل الامثال . .
٢ ـ اختيار الالفاظ ذات الدلالة القوية المعبرة بشكل صادق ودقيق ونقصد بالصدق هنا الصدق الشعوري الفني الواقعي .

(٦٩) مجمع الامثال : ١ / ١٠٠ ـ ١٠١ .
(٧٠) المصدر السابق : ٢ / ١٢٤ .

٣ ـ وجود بعض الالفاظ الغريبة احيانا مما حدا بمؤلف مجمع الامثال ان يشرح الكلمات من الناحية اللغوية لفتح الغلق كما يقول .

٤ ـ التناغم الموسيقي حيث نحس ان للمثل وقع خاص يجبرك على حفظه والتمتع به .

٥ ـ هذا مع ملاحظاتنا لذلك الارتباط الوثيق بين المثل والقصة الاسطورية التي كانت مادة طريفة للبدو يسمرون بها في صحرائهم .

قال ابراهيم النظام يجتمع في المثل اربعة لا تجتمع في غيره من الكلام ، ايجاز اللفظ واصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة ونلاحظ انه في رايه هذا ينطلق من دراسته للامثال القديمة وربما الامثال التي وضعت من لدن اناس متمكنين من صياغة وصناعة الالفاظ وتنسيقها ورايه بشكل عام اشبه بتلخيص دقيق لاسلوب المثل .

اما الامثال التي تصور الجانب الحضري لحياة العربي فهي كثيرة في مجمع الامثال وهذا في اعتقادي احد ميزات منهجه حيث يختلف عن المؤلفين الاخرين ممن جمعوا الامثال القديمة حيث اقتصروا على الامثال التي تصور حياة البدوي الصرفة مع ايراد قصص ومناسبات اكثرها يمتاز بطابع الخيال ومن امثلة ذلك ما ورد في كتاب المفضل الضبي (امثال العرب) .

والامثال الحضرية تصور الحياة التي عاش اهلها في بيئة تعتمد على الزراعة والتجارة غالبا وعلى الرعي قليلا ، وكان لهم فوق ذلك هذا المركز الديني الذي كان تحت سيادة قريش في مكة ، وكانت لهم هذه الاسواق والمواسم التي كانت تفد اليها القبائل المجاورة للتجارة احيانا ، ولتادية الشعائر الدينية احيانا اخرى وللمفاخرة والمنافرة فيما بينها ، وفي بعض الاحيان تصور هذه البيئة بجوانبها الاقتصادية والدينية ، ولابد ان تصدر عنها امثال تمثل هذا الجانب من الحياة الذي تعيشه هذه المجتمعات وتصوره احسن تصوير ، ولو اخذنا المثل القائل (حتفها تحمل ضان باظلافها) يضرب لمن يوقع نفسه في تهلكة واصله ان رجلا وجد شاة ولم يكن معه ما يذبحها به فضربت باظلافها الارض فظهر سكين فذبحها به وهذا المثل لحريث بن حسان الشيباني تمثل به بين يدي النبي (ص) لقيلة التميمية وكان حريث قد حملها الى النبي(٧٢) .

والمثل القائل . (من يرد الفرات عن دراجه) ويروى من ادراجه وهما جمع درج اي عن وجهه الذي توجه اليه .. يعني ان الامر خرج من يده وان الناس عزموا على الخروج من الكوفة فهو لا يقدر ان يردهم من فورهم هذا(٧٣) وقولهم (النبع ينقرع بعضه بعضا) النبع من شجر الجبل وهو من اكرم الميدان ويضرب للمتكافئين في الدهاء والمكر(٧٤) وقولهم (اذا زل العالم زل بزلته عالم) ونرى في هذا المثل استخدام كلمة (العلم) ومالها من اتصال بالحضارة والاستقراء وكذلك اثر سلوك الادباء الفكري على الاخرين .

اوردنا فيما تقدم بعض الامثال التي عكست حياة العرب الحضرية سواء اكانت في الجاهلية ام في الاسلام ، وصورتها لنا من زوايا معينة ومتعددة من حيث العلاقات الاجتماعية والفكرية والنشاط الاقتصادي ، وقد انتشرت هذه الامثال انتشارا واسعا ووجد الكثير ممن تمثلوا بها ، ولعل السر في هذا الشيوع والانتشار يعود الى ايجازها المكثف الذي ساعد على سرعة حفظها ، فقد تناقلتها الألسن جيلا بعد جيل وقد تمثل الرسول ببعض الامثال .

اذا القينا نظرة عامة على كل الامثال التي اوردناها نجد ان خطوطا عامة تربطها وذلك ينطبق على الامثال المسهبة الطويلة منها ، مثل قصص لقمان الجاهلي او تلك التي تتحدث عن السنن البهائم مثل حكاية الارنب والضب التي ذكرناها ؛ وكذلك تلك الامثال التي تتركب من جملة او جملتين اي قلة اللفظ مع اداء المعنى اداء كاملا ، ولعل اهم هذه الحقائق او الخصائص هي .

١ ـ الايجاز والبعد عن التركيب والتعقيد فالجمل متساوية الى حد بعيد هذا مع كثرة الفواصل وكثرة حروف العطف الخفيفة كالواو ، والفاء ، وهذه الظاهرة نجدها في معظم الامثال التي اوردها الميداني .

---

(٧٢) المصدر السابق : ١ / ٢٠١ .
(٧٣) المصدر السابق : ٢ / ٢٧١ .
(٧٤) المصدر السابق : ٢ / ٢٩٩ ـ ٣٠٠ .

٢ ــ واذا انتقلنا الى مجموعة الامثال الاخرى التي تتكون من جملة او جملتين او اكثر قليلا فاننا نلاحظ ايضا هذا التتبع وهذا الانتقال من عبارة الى اخرى باسلوب سلس خال من كل غموض او تعقيد ونجد هذا في كثير من الامثال نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر (اليوم خمر وغدا امر) و (الأيناس قبل الابساس) و (رب قول اشد من صول)(٧٥) ونلاحظ اسلوب السجع في بعض هذه الامثال ، ويبدو ان استخدامه نابع من الاسلوب الموسيقي الذي يجعلها اسهل حفظا .

٣ ــ هناك كثير من الامثال تبدا باداة من ادوات الشرط وهي جملة موجزة ايضا مثل قولهم (اينما اوجه الق سعدا) و (اذا نزا بك الشر فاقعد به) و (ان يبغ عليك قومك لا يبغي عليك القمر) و (اذا ضربت فاوجع واذا زجرت فاسمع) .

٤ ــ وهناك كثير من الامثال تعتمد على التصوير والتشبيه فقد صورت احوال الناس تصويرا جميلا وموحيا في الوقت نفسه ، كقولهم (كل مجر في الخلاء يسر)(٧٦) فهذا يعطينا صورة الرجل الساذج المغرور المعجب بفضائل غيره فمثله كمثل من يجري فرسه بالمكان الخالي الذي لا ساق فيه فيسر بما يرى من سرعة ولعله اذا قرن بغير يتبين نقصه .

وقولهم (عثيثة تفرم جلدا املسا)(٧٧) للرجل المهين القدر صغير الشان يتطاول على اخير عظيم شريف يريد ان يؤثر فيه فلا يقدر عليه فهو يشبه عثيثة تفرم جلدا املس اي عثة صغيرة حقيرة تاكل جلدا ناعما ، فلا تؤثر فيه كثيرا ولا تنال منه الا القليل ، وفي هذا المثل خطأ نحوي تجاوزه المثل والاصح ان تقول عثيثة تفرم جلدا املس ، لان املس ممنوعة من الصرف ، ولقد كانوا يعتمدون على الخيال في هذه الصور لكنها مستمدة من الحياة العربية نفسها من حيوان ونبات ومشاهد ووسائل العيش التي الفها العرب ببيئاتهم وقد اوردنا تعريفات القدماء التي تعد الايجاز ركنا من اركان المثل .

٥ ــ وهناك كثير من الامثال مبدوءة بجملة حالية لم تستانف بالواو ليكون مابعدهاجملة اسمية او فعلية مثل (ان الليل طويل وانت مقمر) وقولهم (انج ولا اظنك ناجيا) .

ونتحدث الان عن المثل الذي جاء على وزن (افعل من) الذي ختم الميداني به كل الأبواب ويرى الدكتور عبدالمجيد عابدين ان هذا مثال من تلك الامثال المصطنعة التي اقحمها الرواة وصناع الكلام على الامثال الاصلية ، وسنرى ان معظم هذا النوع على كثرة وروده في مدونات الامثال مستحدث اضافه الرواة الى المثل القديم وهو في كثير من الاحيان لم يظفر في صورته الشكلية على الاقل بالالفه الشعبية(٧٨) ، ونحن على يقين ان العرب كانوا يغرمون في المبالغة لبيان عظمة الاشياء مما يجود به خيالهم ويصفون بشكل مبالغ فيه ، فقالوا (ابصر من عقاب ملاع) وملاع اسم هضبة (وقيل) ملاع اسم للصحراء وانهم قالوا ذلك لان عقاب الصحراء ابصر واسرع من عقاب الجبال(٧٩) .

وقالوا (ابلغ من قس) وهو قس بن ساعدة وكان من حكماء العرب(٨٠) ؛ وكان من بلغائهم وقولهم (اذل من بساط) يعنون هذا الذي يبسط ويفرش فيطؤه احد(٨١) ، فهم لم يقتنعوا ان يصفوا المشبه به بقوة بصر العقاب ولا ببلاغة قس بن ساعدة بل جعلوه ارفع شانا واعظم قدرا حتى يعظموا في التشبيه وانهم لم يرضوا ان يجعلوا المشبه به بذلة البساط المفروش الذي يتساوى مع الارض بل جعلوه اقل شانا واخس محلا. ان مثل هذه الامثال تمتاز بالمبالغة بالتشبيه كما قلنا وبالصنعة النحوية والبلاغية وتشتمل على امور من ضمن البيئة العربية فالعقاب حيوان معروف عند العربي ، وقس بن ساعدة من صلب البيئة العربية الجاهلية كذلك البساط والعقاب وغيرها .. ولنقل ان هذه الامثال من صنع الرواة كما يقول الدكتور عابدين ، فهي قد عبرت عن بيئة عربية خالصة واخذت طريقها في المد الشعبي العربي على مر الاجيال وقد تكون اكثرها منتحلة ولكنا كباحثين من المفروض ان نصل الى ذلك عن طريق

(٧٥) ينظر مجمع الامثال : ١ / ٢٨٢ ، ٦٢ ، ٣٠٢ .
(٧٦) المصدر السابق : ٢ / ٨١ .
(٧٧) المصدر السابق ١ / ٤٨٩ .
(٧٨) الامثال في النثر العربي القديم : ٨٩ .
(٧٩) مجمع الامثال : ١ / ١٢١ .
(٨٠) المصدر السابق : ١ /١١٧ .
(٨١) المصدر السابق : ١ / ٢٩٧ .

الاستقصاءوالاستقراء والتتبع بالرغم من انبعضها يمكن تميزه من خلال روحه ومعناه لانه يدل على شخصيات اسلامية متاخرة او غير ذلك ، يقول الدكتور عبدالمجيد عابدين : ومن ثم جاز لنا ان نقول ان كثيرا مما ورد من الامثال على افعل هو عبارات منتحلة على المثل القديم انتحالا وليست منه في قليل او كثير وان الادباء الرواة والعلماء قد وجدوا هذه الصيغة قالبا سهلا ميسورا يصبون فيه اي تشبيه يجود به خيالهم او معلومات قد عرفوها ولم تكن هذه الامثال حية الاستعمال في تلك العصور المبكرة(٨٢) .

قالوا (اصدق من قطاة) لان لها صوتا واحدا لاتغيره فصوتها حكاية لاسمها تقول قطا قطا(٨٣) قالوا (اكمن من جد جد) وهو ضرب من الخنفساء يصوت في الصحاري .. فاذا طلبه الطالب لم يره(٨٤) ، وقالوا (الين من الزبد ومن خرنق) والخرنق ولد الارنب(٨٥) و (امرق من سهم) ان هذه الامثال التي ذكرتها تكاد تخرج عن طبيعة البيئة العربية الصرفة رغم ادعاء اكثر الباحثين على وضع هذه الامثال فيما بعد .

ونعرج الان على طائفة جديدة من الامثال التي اوردها الميداني في كتابه ، تلك التي ترسم خطا ثالثا في امثالنا العربية الا وهي (امثال المولدين) وقد استعمل لفظ (المولد) بعد امتداد رقعة الاسلام والفتوحات واختلاط العرب بكثير من العناصر الاجنبية التي ارتبطت مع العرب برابطة الدين ، وقد ظهرت هذه الامثال بعد أن ضعف النفوذ العربي بعد نهاية العصر الاموي وبداية العصر العباسي ولكننا لانستطيع أن نعرف الارهاصات الاولى لمثل هذه الامثال .

واذا تصفحنا امثال الميداني المولدة هذه اكتشفنا حقيقة هامة هي ان معظم الامثال العربية القديمة والكتابية ايضا قد اختفت من الاستعمال ، وان امثالا جديدة حلت محلها فاول ما نلاحظه انقطاع الصلة بين المولدين الذين نشاوا في بيئات غير عربية وبين كثير من الحوادث والعادات والشخصيات التي تشير اليها امثال الجاهلية وصدر الاسلام(٨٦) ؛ فهم بحاجة اذن الى امثال تعبر عن مشاعرهم واخلاقهم وحياتهم وبيئاتهم ، وهذا امر طبيعي لانهم لا يعرفون من التاريخ العربي ومن عادات العرب الا القليل فكيف به يستذوق مثلا عربيا قيل عن الصحراء وحيوانها وهو لم يعرفها او يراها ، ولاي شيء وباي اعتبار تطلب من النبطي او الفارسي ان يتبنى امثالا لا يجد في حوادثها وشخصياتها ما يعبر عن نزعة خاصة او ظاهرة تتعلق بحياة قومه وبيئته(٨٧) .

فلا بد ان تظهر امثال جديدة اقرب الى بيئتهم في مادتها وصورتها وبالضرورة تكون هذه الامثال قريبة الى نفوسهم بالنسبة الى الامثال العربية ، وقد حاول الميداني ان يجمع عددا لاباس به في كتابه من الامثال المولدة حسب احصائي (٩٠٥) امثال واذا فاتني شيء فهي لاتتجاوز الالف ابدا .

ولناخذ هذه المجموعة من الامثال لدراستها قيل (البصر بالزبون تجارة) يضرب في المعرفة بالانسان وغيره(٨٨) ، ومن خلال هذا المثل نحس بتغير المفاهيم الاجتماعية حيث نجد ان التعامل مع الناس يسوده الريبة والشك وفيه الفاظ تجارية مثل الزبون والتجارة ، فهي تعبر عن بيئة جديدة ليس للعربي سابق عهد بها ، وقالوا (الصناعة في الكف امان من الفقر)(٨٩) ، نلاحظ ان الصناعة التي كان يأنف منها العربي ويسميها (مهنة) وهي في اشتقاقاتها البعيدة اقرب الى المهانة والحقارة تصبح في مفهوم غير العرب امان من الفقر وتجارة لابور وهذا من الامور التي خلفتها المدنية والتطور والا فالعرب لم يشتغلوا بالصناعة الا في عصور متاخرة عن العصر الجاهلي حيث كان الاعاجم هم الصناع آنذاك .

وقولهم (اذا افتقر اليهودي نظر في حسابه العتيق)(٩٠) ، نجد فيه ان الالفاظ الحضرية وما فيها من اهتمامات تجارية فاليهودي هنا يملك

---

(٨٢) الامثال في النثر العربي القديم ـ ٩٧ .
(٨٣) مجمع الامثال : ١ / ٢٢٤ .
(٨٤) المصدر السابق : ٢ / ١١٧ .
(٨٥) المصدر السابق : ٢ / ٢٠١ .
(٨٦) ينظر الامثال في النثر العربي القديم : ١٧٨ .
(٨٧) المصدر السابق : ١٧٩ .
(٨٨) مجمع الامثال : ١ / ١٢٨ .
(٨٩) المصدر السابق : ١ / ٣١ .
(٩٠) المصدر السابق ١ / ٩١ .

سجلات متعددة منها ما اكل الدهر عليها وشرب وهو مشغول بالبحث فيها عن خطأ او سهو عسى ان يجد شيئا يقتات منه بعد ان اصابه الفقر ينابه ، ويظهر المثل ايضا طبيعة اليهودي في الاسراف والجشع في حب المال وكل ماهو مادي واهتمامه بالتجارة كما هو عليه الان من استغلال وجشع.

ونتامل المثل القائل (ان للحيطان آذانا)(٩١) فنرى ان روح الشك والارتياب قد عمت في حياة المتحضر حيث انتشرت روح النفاق والزيف في العلاقات الاجتماعية وان الحذر المشوب بالخوف الذي جده المثل ينم عن وجود السلطة التي تحاسب الناس وتردعهم حينما يتحدثون او ينقدون السلطان الحاكم ، وقولهم (اذا عاب البزاز ثوبا فاعلم انه من حاجته)(٩٢) فالاحساس بحياة التجارة والعمل مازالت تطغى في هذا المثل فالبزاز يمثل مهنة حديثة بعيدة عن حياة العرب البدوية ويؤكد المثل الاستغلال والغش الناجمين عن تعقد العلاقات وتوسع المجتمع وظهور المدنية والاختلاط الحضاري .

وقولهم (زاد في الطنبور نغمة) والطنبور آلة موسيقية تشبه الناي ويخيل الي ان الكلمة ليست عربية ومما يدل على ذلك ان المثل مولد ، وانه يعبر عن حياة المدن وما فيها من تضخيم لبعض الاعمال البسيطة فالمثل يضرب للاشاعة الضخمة واضافة ما لم يوجد اصلا . وقولهم (كن يهوديا تماما والا فلا تلعب بالتوراة)(٩٣) ، و (تعلم الشرطي ولا الزطي التلصلص)(٩٤) من خلال هذين المثلين يظهر التعبير عن البيئة من الناحيتين الدينية والدنيوية ، فاليهودي البخيل الجشع هو الذي يعرف كيف يقرأ التوراة ويستخرج منها ما يريد او ما ينفعه من الاستغلال ، والشرطي في المثل الثاني لفظة حضرية مدنية صريحة وهي مرتبطة بوجود الحكومة والسلطة وتعقد العلاقات الاجتماعية فظهور الجريمة بانواعها . و الزطي كلمة اعجمية وهو الشخص الذي يضرب على آلة الزط الموسيقية والمثل ينم عن اصله بشكل صريح .

ان هذه الامثال وغيرها مرآة واضحة لدخول العناصر الجديدة واختلاطهم مع العرب من خلال ايمانهم بالدين الاسلامي حيث شدتهم وشائج الزواج والقرابة مع العرب وكذلك الصناعة والتجارة والاسواق ، ولو اردنا ان نضع بعض الخصائص الفنية لهذه الامثال وجدنا ما يلي :

١ ـ بساطة المعنى وابتعاده عن التعقيدات اللفظية .
٢ ـ ظهور روح الانسياب والاسترسال في الصياغة
٣ ـ دخول الالفاظ الاعجمية والعامية الماخوذة من لغة الحياة اليومية .
٤ ـ تمتاز هذه الامثال بالوصف الحسي والتصوير الدقيق .
٥ ـ تتميز بتوازن العبارات وفيها الحث على التاديب والحذر وفي الختام نقول ان هذه الامثال كانت نتاجا طبيعيا لمجتمع جديد فيه من العناصر والاجناس المتباينة وفيه العلاقات الجديدة التي ظهرت بظهور المدن وتوسع المجتمعات والاختلاط وطغيان الصناعة والتجارة والحكومات والسجن والجريمة ، والامثال المولدة تتناول تجارب انسانية عامة تحمل بين طياتها شيئا من تراث الشعوب التي اوجدتها .

---

(٩١) المصدر السابق : ١ / ٩٠ .
(٩٢) المصدر السابق : ١ / ٩١ .
(٩٣) المصدر السابق : ٢ / ١١٩ .
(٩٤) المصدر السابق : ٢ / ٢١٢ .

مصادر البحث ومراجعه

١ ـ الادب العربي في الجاهلية والاسلام ـ عمر كحاله المطبعة التعاونية ـ دمشق ١٩٧٢ .

٢ ـ الاعلام . خير الدين الزركلي ، الجزء الاول ـ المطبعة العربية ـ مصر ١٩٢٧ .

٣ ـ الامثال العربية القديمة ـ رودلف زلهايم ترجمة الدكتور رمضان عبدالتواب ـ دار الامانة ـ بيروت ، ط ١ ١٩٧١ .

٤ ـ الامثال في النثر العربي القديم ـ د . عبدالمجيد عابدين ـ دار مصر للطباعة .

٥ ـ انباه الرواة على انباه النحاة ـ جمال الدين القفطي ، تحقيق محمد ابو الفضل ، الجزء الاول دار الكتب المصرية ١٩٥٠م .

٦ ـ تاريخ اداب اللغة العربية ـ جرجي زيدان . الجزء الاول ، دار الهلال ١٩٥٧م .

٧ ـ التمثيل والمحاضرة للثعالبي ، تحقيق . عبدالفتاح محمد الحلو . مطبعة عيسى الحلبي ـ القاهرة ١٩٦١م .

٨ ـ جمهرة الامثال . لابي هلال العسكري . ملك الكتاب ـ بومباي (د ت) .

٩ ـ السامي في الاسامي ـ احمد بن محمد ابي الفضل الميداني نشره ورتب اخراجه . الدكتور محمد موسى هنداوي (د ت) .

١٠ـ العصر الجاهلي ـ د . شوقي ضيف . مطبعة دار المعارف بمصر ـ ط ٢ ـ ١٩٦٥م .

١١ـ العقد الفريد ـ لابن عبد ربه ، شرح . احمد الزين وابراهيم الابياري ، الجزء الثالث ط ٢ مطبعة التاليف والنشر ـ مصر ١٩٥٢م .

١٢ـ فجر الاسلام . احمد امين ـ مكتبة النهضة المصرية ط ١٠ ـ ١٩٦٥م .

١٣ـ فصل المقال في شرح كتاب الامثال . لابي عبيد البكري . تحقيق احسان عباس واخرون ، دار الامانة . مصر (د ت) .

١٤ـ الفلاكة والمفلوكون ـ احمد بن علي الدلجي . مطبعة الشعب ـ مصر ١٣٢٢هـ .

١٥ـ الفلك الدائر على المثل السائر ـ لابن ابي الحديد . تحقيق د . احمد الحوفي دار نهضة مصر ١٩٥٩ .

١٦ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي ـ د شوقي ضيف مطبعة دار المعارف بمصر ، ط ٥ ١٩٤٦ .

١٧ـ كتاب الامثال ـ لابي فيد السدوسي . تحقيق .د. رمضان عبدالتواب ، الهيئة المصرية للتاليف ١٩٧١ .

١٨ـ كشف الظنون في اسامي الكتب والفنون . حاجي خليفة مطبعة المعارف بمصر . ١٩٤٢ الجزء الثاني .

١٩ـ لسان العرب لابن منظور ، دار لسان العرب / بيروت مجلد ٣ ، ترتيب يوسف خياط ونديم مرعشلي .

٢٠ـ مجمع الامثال . لاحمد بن محمد الميداني . تحقيق محيي الدين عبدالحميد ، مصر ١٣٥٢هـ .

٢١ـ المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ضياء الدين أبن الاثير قدم له . د . احمد الحوفي وبدوي طبانة ، مطبعة المعارف بمصر ط ١ ١٩٥٩ .

٢٢ـ معجم الادباء . ياقوت الحموي . الجزء الخامس ، دار المأمون ـ مصر (د ت) .

٢٣ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة . احمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زادة ، تحقيق كامل كامل بكري وآخرين ، مطبعة الاستقلال . مصر .

٢٤ـ نزهة الالباء في طبقات الادباء ـ لابي البركات كمال الدين الانباري تحقيق ابو الفضل ابراهيم دار نهضة مصر ـ القاهرة (د ب) .

٢٥ـ الوسيط في الادب العربي وتاريخه . الشيخ احمد الاسكندري ط ١٧ ، دار المعارف بمصر (د ت) .

٢٦ـ وفيات الاعيان ـ لابن خلكان ، الجزء الاول تحقيق . محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط١ ـ ١٩٤٨ مطبعة السعادة بمصر .

ملاحظة :وقع في يدي بعد اتمام البحث العدد ٢ من المجلد الثالث لمجلة المورد /١٩٧٤ وفيه بحث قيم للسيد عبدالرحمن النكريني بعنوان « مصادر الميداني في كتابه مجمع الامثال » وفيه احصاء دقيق واستقصاء جيد للمصادر التي اعتمدها الميداني .